الذي يتحول في لحظة ما إلى فعل عام ضد ما هو قائم. لذلك يصبح من الواضح مدلول انعدام الموقف الجماهيري العربي على ما حصل في لبنان خلال الحروب الاسرائيلية ــ الفلسطينية الثلاثة. وليس في هذا تبرير، إنما تقرير لواقع الحال في الوطن العربي. والدليل على ذلك الشذوذ اللبناني عن القاعدة العربية العامة، حيث توفرت في لبنان ديمقراطية نسبية أتاحت الفرصة لصياغة رأي عام قادر على التعبير عن نفسه.

تســـاؤلات

تأسيساً على كل ما تقدم، هل يمكن القول أن القضية الفلسطينية، بما هي قضية عربية، قد ماتت في ذاكرة الشعوب العربية؟

وهل يمكن الوصول إلى استنتاج أن الدائرة القطرية، بعد أن أغلقت كدولة، قد أغلقت أيضاً كشعب، وأصبحت وضعاً شعبياً عاماً في المنطقة العربية؟

إذا كان الأمر كذلك، فإن الوضع الفلسطيني المنتشر في الوطن العربي، سينغلق على نفسه «غيتو» يصارع ضد كل العرب، عدا عن صراعه ضد إسرائيل. لكن المتتبع للهمس الشعبي الذي يجري تداوله خلف الأبواب المغلقة يوحي بغير ذلك، خاصة بعد أن أثبت الفلسطينيون والوطنيون اللبنانيون في حربهم الأخيرة ضد إسرائيل، على قلة عددهم وعدتهم، في مواجهة العدد والعدة الاسرائيليين، إن هذا «البعبع» الإسرائيلي ليس ذلك الذي لا يمكن الوقوف في وجهه أو مواجهته. وأكدت تلك المواجهة أن الهزائم العربية أمام إسرائيل منذ ١٩٤٨ حتى الآن، هي هزائم كامنة في الذات العربية. وقد قال الوزير الإسرائيلي يعقوب مريدور في مقابلة معه «أن العرب كان بإمكانهم إنهاء إسرائيل عام ١٩٤٨ خلال ٤٨ ساعة، ولن أقول كيف».

فهل يمكن القفز فوق الواقع الذي استقر في هذا الوطن العربي؟

إذا انطلقنا من مقولة عدم السكون في الحياة، وأن تاريخ الشعوب لا يحدد بزمن معين، يمكن القول أن الوضع الراهن ليس أبدياً. فإذا كانت ظاهرة العمل الجماهيري الفلسطيني المسلح برزت في هذه «الحقبة الرديئة» من الزمن العربي، فذلك لا يعني أن بإمكان الأنظمة العربية احتواءها، وقبرها في مكاتب موزعة بين دمشق وتونس، كما حصل لحكومة عموم فلسطين. فحكومة عموم فلسطين كانت انفعال نخبة، رداً على فعل عربي رسمي. أما منظمة التحرير الفلسطينية، فقد جاءت ترجمة لإحساس جماهيري فلسطيني عام، رداً على خيبة أمل الانتظار الذي بدأ في عام ١٩٤٨، ورداً على الاتكال على الأنظمة العربية. لكن الأمر السلبي في وضع المنظمة هو أنها قبلت أن تندرج طوعاً كنظام بين تلك الأنظمة. قد لا يكون بالإمكان غير ما كان، لكن التجربة يجب أن تعلمنا العمل لتحقيق ما يجب أن يكون، وليس الرضوخ لما هو كائن. ولا يقع العبء في هذا المجال على منظمة التحرير أو على الفلسطينيين عموماً. فالمسؤولية شاملة، وأقلها مسؤولية الفلسطينيين عما حدث. فالجمع العربي هو المسؤول أولاً وأخيراً، ونخبه بكل تصنيفاتها، سلطة ومعارضة، هي المسؤولة عما آل إليه حال العرب، حيث تحولوا إلى مستجدي سلام مع إسرائيل، ولو بأي ثمن.